تدبر القرآن الكريم

مفهومه ـ أساليبه ـ أسبابه ـ آثاره

إعـــداد

د. فهد بن مبارك بن عبد الله الوهبي

د. فهد بن مبارك بن عبدالله الوهبي

- وكيل عمادة شؤون الطلاب للنشاط الطلابي بجامعة طيبة بالمدينة المنورة.
- حصل على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بأطروحته (منهج الاستنباط من القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه في الكتاب والسنة من جامعة أم القرى بأطروحته: (المسائل المشتركة بين علوم القرآن وأصول الفقه وأثرها في التفسير).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

فقد اختصَّتْ هذه الأمةُ ـ ولله الحمد ـ بمنهج فريد في ضبط العلوم: تأصيلاً، وتفصيلاً، وتفريعاً، وتدقيقاً، وتصنيفاً، وتدريساً.

وعلماؤنا ــ رحمهم الله ــ أحكموا التأصيل، وأحسنوا القول في التفصيل، فكان منهجهم في كتابة العلوم منهجاً فريداً، حقيقاً بالإعجاب، والإكبار، ونحن في هذه العصور نتلمسُ في صفحات ذلك التراث الضخم، ما يؤلف دراسةً حديثةً جامعةً للمتشابهات والمتفرقات منه.

ومن تلك المواضيع الحرية بالدراسة والبحث والتأصيل؛ موضوع تدبر القرآن الكريم، الذي هو بحاجة للمزيد من الأبحاث والدراسات التي يمكن أن تؤسس ذلك المنهج الصحيح لتدبر القرآن الكريم.

وتدبر القرآن واجب على الأمتين: أمةِ الدعوة، وأمةِ الاستجابة.

وقد وردت الأدلةُ العامةُ الدالةُ على ذلك كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء] وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد]، وقال جل وعلا: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص]. وقال جل وعلا: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ

جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر].

قال القرطبي: "حثَّ على تَأَمُّلِ مواعظ القرآن، وبَيَّنَ أنه لا عُذْرَ في تَرْكِ التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآنِ الجبالُ ــ مع تركيب العقل فيها ــ لانقادتْ لمواعظه، ولرأيتَها ـ على صلابتها ورزانتها ــ خاشعةً متصدعةً، أي: متشققة من خشية الله"[١].

والمؤمنون بفضل الله تعالى يتأملون آيات الله فتقشعرُّ جلودُهم خوفاً من الوعيد، ثم تلين جلودُهم عند سماع الوعد.

وأما الكافرون فإنهم أعرضوا عن التدبر فكانوا كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النحل].

وفي هذه الدراسة المتواضعة حاولتُ إبراز بعض الجوانب المهمة في تأصيل منهجية التدبر، أسأل الله تعالى أن تكون متقبلة لديه، خالصةً لوجهه، إنه جواد كريم.

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٨ / ٤٤).

تمهيد

مفهوم التدبر

التدبر في اللغة:

تدور مادة الكلمة حول أواخر الأمور وعواقبها وأدبارها، فالتدبُّر هو: النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه.

قال الزجاج (ت: ٣١١ هـ): " التدبر: النظر في عاقبة الشيء "(١).

وقال ابن فارس (ت: ٣٩٥ هـ): " دبر: الدال والباء والراء. أصل هذا الباب أنَّ جُلّه في قياسٍ واحد، وهو آخِر الشَّيء "(٢).

وقال الجرجاني (ت: ٨١٦ هـ) في تعريف التدبر: " عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكرَ تصرفُ القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب "(٣).

والتدبير والتدبر: نظرٌ في عواقب الأمور(٤). فتنظر إلى ما يؤول إليه عاقبتُه(٥).

التدبر في الاصطلاح(٦):

يمكن الخروج بتعريف لكلمة التدبر بمعناها الاصطلاحي عند

(١) انظر: زاد المسير: (٣٠٥).

(٢) معجم مقاييس اللغة: (٢ / ٢٦٦)، وانظر: العين: (٨ / ٣١).

(٣) التعريفات: (٥٤).

(٤) العين للخيل: (٨ / ٣٣)، والقاموس المحيط: (٣٩٠).

(٥) انظر: الصحاح تاج اللغة: (٢ / ٦٥٥).

(٦) انظر تحرير معنى التدبر عند المفسرين: (٧).

المفسرين بأن التدبر هو:

(تأمل القرآن بقصد الاتعاظ والاعتبار والاستبصار)

- فكلمة (تأمل) قد اتفق عليها أغلب المعرفين للتدبر.
- وكلمة (القرآن) هي الواردة في نص الآية الكريمة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤]، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وفي قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].
- وجملة (بقصد الاتعاظ والاعتبار والاستبصار): هي نتيجة التلبر وثمرته، كما قال تعالى: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[ص]. ومما يدل على كون هذا هو المقصود من التدبر؛ توجيه الخطاب في الآيات الآمرة به للكفار والمنافقين، والمقصود من ذلك اتعاظهم بما ورد في القرآن، واعتبارهم الهادي إلى الإيمان واتباع الشرع. وهكذا يكون المقصود عند تعميم الأمر ليشمل المسلمين فالتدبر متوجه إلى اتعاظ القلب واعتباره مما يُثمر بعد ذلك آثاراً دالة على الخشوع: كوَجِل القلب، والبكاء، والخشية، وزيادة الإيمان، وغير ذلك مما ذكره الله تعالى في كتابه نتيجة التأثر بالقرآن كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة]. وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ

هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال].

المبحث الأول
أساليب القرآن في الدعوة إلى التدبر

دعا القرآن إلى التدبر في مواضع كثيرة، وحثَّ عليه، وتفنن في ذلك غاية التفنن، وحَرَّكَ القلوبَ والعقولَ إلى تأمل المعاني، والاتعاظ والاستبصار بما جاء من الله تعالى من التخويف والترهيب والترغيب، وما ذكر من مصير الأمم السالفة، حين استجابوا أو كذَّبوا الرسل عليهم الصلاة والسلام.

لذلك فإن المواضعَ التي يذكر فيها القرآنُ القَصَصَ، والأمثالَ، والتي يذكر فيها الحثَّ على: التعَقُّلِ[1]، والتَّذَكُّرِ[2]، والتَّفَكُّرِ[3]، والتقوى[4]،

(١) ورد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في سبعة مواضع، كما ورد قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ في ثمانية مواضع. وقد ورد غيرها من الآيات في نفس الموضوع بصيغ مختلفة.

(٢) ورد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في سبعة مواضع من القرآن الكريم، كما ورد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ في موضعين. وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ في سبعة مواضع، وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ في ستة مواضع.

(٣) قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام]. وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في موضعين، وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في سبعة مواضع، وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في موضعين.

(٤) ورد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ في خمسة مواضع أيضاً، وورد قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في ستة مواضع.

والإيمان(١)، والرؤية والإبصار(٢)، والسماع(٣)؛ فإنما يدعو فيها إلى تدبر القرآن، والتأمل فيما فيه من المواعظ والآيات، القائدِ بعد ذلك إلى التصديق والإيمان واتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

ولقد تنوعت الأساليب التي دعا فيها القرآن إلى التدبر، ويمكن بيان بعض تلك الأساليب فيما يأتي:

- **الأسلوب الأول: الحث المباشر على التدبر العام للقرآن:**

وقد ورد ذلك في عدد من الآيات الكريمات منها:

أ ـ قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء].

(١) كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

(٢) كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه]، وقوله تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية]، وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [السجدة]، وورد قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرُوا۟ ﴾ في خمسة مواضع، وورد قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ في ثلاثة مواضع.

(٣) كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة]، وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [القصص]، وورد قوله تعالى: ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ في ثلاثة مواضع.

ب - ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد].

ج - ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون].

د - ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].

فقد دعا القرآن هنا إلى التدبر دعوة مباشرة صريحة، وأبان أنَّ عِلَّةَ إنزال القرآن؛ التدبرُ، ولا شكَّ أنها علةٌ عظيمةٌ قائدةٌ إلى كلِّ فلاحٍ وفوزٍ في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

- **الأسلوب الثاني: توجيه الخطاب لأصحاب العقول والنهى**(١):

فقد ورد توجيه الخطاب في القرآن الكريم إلى أصحاب العقول، والألباب، والنهى.

وسرُّ ذلك: حثُّ أصحاب تلك العقول والألباب إلى استعمالها في تدبر النص القرآني، والاهتداء بما فيه، ومن تلك الآيات:

---

(١) ورد قوله تعالى: ﴿ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ في موضعين، وورد قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ في موضعين أيضاً، وورد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ في موضعين، وورد قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم]، وقوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفجر]، وورد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ في موضعين.

أ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران].

ب ـ وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].

ج ـ وقوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [طه].

د ـ وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [طه].

قال ابن جرير الطبري: "وخصَّ ـ تعالى ذكرُه ـ بأنَّ ذلك آياتٌ لأولي النُّهَى؛ لأنهم أهل التفكُّر والاعتبار، وأهل التدبر والاتعاظ"[١].

وقال في تفسير الآية الثالثة: "إن فيما وصفتُ في هذه الآية من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه لآيات: يعني لدلالات وعلامات تدلّ على وحدانية ربكم، وأن لا إله لكم غيره"[٢].

- **الأسلوب الثالث: ضَرْبُ الأمثال بقصد التفكر والتذكر:**

فقد ضرب الله تعالى الأمثال في القرآن الكريم، وحث على تأملها وتذكرها، في آيات عديدة، وفي مجالات متعددة، فضرب الله الأمثال: للإيمان، والكفر، والعلم النافع، وفضح النفاق، والحث على الإنفاق،

---

(١) جامع البيان: (١٦ / ٨٦).

(٢) السابق نفس الصفحة.

والترغيب في الخير، والتنديد بالشر، وتصوير الطيب والخبيث، والصالح والطالح، ولإقامة الأدلة والبراهين، وبيان خيري الدنيا والآخرة[١].

وقد قال الله تعالى في بيان الهدف من تلك الأمثال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[العنكبوت]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الحشر].

وأبان القرآنُ مصيرَ مَنْ لم ينتفع بتلك الأمثال كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان].

قال ابْنُ جرير الطبري: "يقول تعالى ذكرُه: وكلَّ هذه الأمم التي أهلكناها، التي سمَّيْناها أو لم نسمِّها، ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ يقول: مثَّلْنا له الأمثالَ، ونبَّهْناها على حججنا عليها، وأعذرنا إليها بالعبر والمواعظ، فلم نُهْلِكْ منهم أمةً إلا بعد الإبلاغ إليهم في المعذرة"[٢].

---

(١) انظر: أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم: (٧).

(٢) جامع البيان: (١٧ / ٤٥٥ ـ ٤٥٦).

- **الأسلوب الرابع: تعليلُ الآياتِ وختمُها بما يدعو إلى التدبر:**

فإن كثيراً من الآيات قد خُتِمَتْ بعلل تدعو إلى التدبر والتفكر، كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم]، وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [السجدة]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الدخان]، وغيرها من الآيات الكثيرة.

ولا شكَّ أنَّ المؤمن يسعى لتحقيق تلك الغايات التي نزلتْ من أجلها الآياتُ، ولا يكون ذلك إلا بتدبر القرآن والتأمل فيه والعمل بما يتضمنه من أوامر وتوجيهات.

وقد أخبر الله تعالى أن الغافلين والكافرين والمتكبرين والمكذبين؛

مصروفون عن تدبر آياته وفهمها والانتفاع بها ـ ومنها القرآن ـ كما قال جل وعـــــلا: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف].

قال سفيان بن عيينة: "أنزعُ عنهم فهمَ القرآن، وأصرفُهم عن آياتي"[١].

وقال ابنُ جرير الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده وفرض عليهم من طاعته في توحيده وعدله، وغير ذلك من فرائضه. والسموات والأرض، وكل موجود من خلقه؛ فمن آياته، **والقرآن أيضًا من آياته،** وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقَّت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والادّكار بها مصروفون، لأنهم لو وفِّقوا لفهم بعض ذلك فهُدوا للاعتبار به، اتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم"[٢].

- **الأسلوب الخامس: ذكر القصص القرآني للتفكر والعبرة:**

قـــال تعـــالى: ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ

(١) جامع البيان: (١٣ / ١١٣).

(٢) السابق نفس الصفحة.

لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الأعراف].

وقـال تعـالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف].

فقد صرَّحَ القرآنُ بأن في تلك القصص عبرةً، وطريق الاعتبار بتلك القصص هو تدبر القرآن.

وقد أحسن الإمام أبو جعفر الطبري ــ رحمه الله ــ عند تفسير آية الأعراف السابقة حيث كان عمله مثالاً يُحتذى للتدبر فقال: " وأما قوله: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾، فإنه يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فاقصص ـ يا محمد ـ هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبارَ الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصَصْت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حلّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رُسُلَنا من نقمتنا؛ على قومك من قريش، ومَنْ قِبَلَك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحلّ بهم مثل الذي حلّ بمن قبلهم من النّقم والمثلات، ويتدبَّره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقةَ أمرك وصحَّة نبوّتك، إذ كان نبأ ﴿ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ من خفيّ علومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلا أحبارُهم، ومن قرأ الكُتب ودرسها منهم. وفي علمك بذلك ــ وأنت أميٌّ لا تكتب، ولا تقرأ، ولا تدرس الكتب، ولم تجالس أهل العلم ـ الحُجَّة البينة لك عليهم بأنك لله

رسول، وأنك لم تعلم ما علِمت من ذلك، وحالُك الحال التي أنت بها، إلا بوحي من السماء"[١].

وبهذا يتبين أثر قصص القرآن في الهداية والإيمان واليقين عند التدبر الصحيح والتأمل بقصد الاعتبار والاستبصار.

(١) جامع البيان: (١٠ / ٥٨٩).

المبحث الثاني
الأسباب المعينة على تدبر القرآن الكريم

١ - معرفة الله تعالى وتعظيمه:

فإن معرفة الله سبحانه وتعظيمه هي الباب العظيم لتدبر كلامه جل وعلا، فإن مَنْ امتلأ قلبُه معرفة بالله وتعظيماً له؛ عَظَّمَ كلامه، وتمعَّنَ فيه، وأصغى إليه متأملاً متدبراً.

وقد أخبر سبحانه أن المشركين ـ وهم الذي لا يعرفونه حَقَّ المعرفة ـ لا ينتفعون بهذا الكتاب الكريم، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) ﴾ [فاطر].

قال ابن جرير الطبري: " وما أنت يا محمد بمسمع من في القبور كتابَ الله، فتهديَهم به إلى سبيل الرشاد، فكذلك لا تَقْدِرُ أن يَنْفَعَ بمواعظ كتاب الله وبينات حججه، مَنْ كان ميت القلب من أحياء عباده، عن معرفة الله، وفهم كتابه وتنزيله"[(١)].

وبين سبحانه أن سبب تكذيب المشركين؛ عدمُ معرفتهم لله حق المعرفة كما قال تعالى: ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) ﴾ [الأعراف].

قال ابن عباس: "عميت قلوبهم عن معرفة الله وقدرته وشدة

(١) جامع البيان: (١٩ / ٣٥٩).

بطشه"[١].

وقال السعدي: "فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل"[٢].

وقال: "فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر: معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك، الظالمون المعرضون"[٣].

ولا شكَّ أن مطالعة التفاسير لا تكفي وحدها في تدبر القرآن ما لم ينضم إلى ذلك الإحساس والإيمان العميقان بأن هذا الكلامَ كلامُ الله تعالى[٤].

قال سَلْم بن ميمون الخوَّاص: "قلت لنفسي: يا نفسُ، اقرئي القرآن كأنك سمعتيه من الله حين تَكَلَّمَ به، فجاءت الحلاوةُ!"[٥].

ولا شكَّ أن تعظيم القرآن من تعظيم الله تعالى، فكما أنه سبحانه عظيم في ذاته، فإنه عظيم في صفاته ومنها كلامه القرآن، وقد سماه سبحانه برهاناً، ونوراً، وهدىً، وفرقاناً، وشفاء لما في الصدور، فعظمه عند المؤمنين؛ ليُعَظِّموا قدره ويفهموه، لينالوا شفاء قلوبهم[٦].

---

(١) تفسير البغوي: (٣ / ٢٤٢)، زاد المسير: (٥٠٣)، وانظر: الوجيز للواحدي: (٣٩٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن: (٨١٣).

(٣) السابق: (٨٧٢).

(٤) تدبر القرآن الكريم : (٤٦).

(٥) سير أعلام النبلاء : (٨ / ١٨٠).

(٦) انظر: فهم القرآن : (٢٨٢).

قال الحارث المحاسبي: "فإذا عَظُمَ في صدْرِك تعظيمُ المتكلِّم به، لم يكن عندك شيءٌ أرفعُ، ولا أشرفُ، ولا أنفعُ، ولا ألذُّ، ولا أحلى، من استماعِ كلام الله عزَّ وجلَّ، وفهمِ معاني قوله، تعظيماً وحبّاً له وإجلالاً، إذ كان تعالى قائله، فحبُّ القولِ على قَدْرِ حُبِّ قائله"(١).

وقد أحسن الإمام الغزالي في تصوير أثر ذلك التعظيم حيث يقول: "ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله. فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم فبفضله وإن عاقب فبعد له، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذا غاية العظمى والتعالي. فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام"(٢).

٢ - التمهل والتأني عند القراءة:

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل]، قال ابن كثير: "أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره"(٣).

والتمهل في قراءة القرآن أدعى للفهم والتدبر، وهذه صفة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم كما وَرَدَ ذلك في عدة أحاديث منها:

---

(١) فهم القرآن: (٣٠٢) وله كلام جميل في هذا الموضع.

(٢) إحياء علوم الدين: (١ / ٢٨١).

(٣) تفسير القرآن العظيم: (١٤٢٧).

- عن حفصة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في سبحته قاعداً، حتى كان قبل وفاته بعام، فكان يصلي في سبحته قاعداً، وكان يقرأ بالسورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها [١].
- وعن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: كانت مدًا، ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يمد بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ويمد بـ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾، ويمد بـ﴿الرَّحِيمِ﴾ [٢].
- وعن أم سلمة: أنها سُئلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: كان يقطع قراءته آية آية، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [٣].
- وعن ابن مسعود أنه قال: لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذّوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة [٤].

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين: باب جواز النافلة قائماً وقاعداً: (٧٩٣) رقم (٧٣٣).

(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن: باب مد القراءة: (٤٣٧) رقم : (٥٠٤٦).

(٣) رواه أحمد في مسنده: (٤٤ / ٢٠٦) رقم : (٢٦٥٨٣) قال الأرنؤوط في تخريجه: "صحيح لغيره وهذا سند رجاله ثقات رجال الصحيحين"، ورواه أبو داود في سننه في الحروف والقراءات: (١٥١٦) رقم (٤٠٠١)، والترمذي في سننه في فضائل القرآن: باب كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم: (١٩٤٥) رقم (٢٩٢٣) وفي أبواب القراءات: باب في فاتحة الكتاب: (١٩٤٥) رقم (٢٩٢٧).

(٤) رواه البغوي في تفسيره: (٨ / ٢٥١)، والآجري في أخلاق حملة القرآن: (١٠ ـ ١١)، وأصله في الصحيح:

=

- وعن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذًّاً كهذِّ الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المُفَصّل سورتين من آل حم في كل ركعة[1].

٣ - فهم القرآن:

فهم القرآن هو أساس التدبر الصحيح، وذلك بفهم المراد من كلام الله تعالى، وفهم القرآن شامل لفهم معنى الآيات ــ بحيث يفهم القارئُ معاني الكلمات، ويقرأ تفسيرها ـ ولفهم المقصود من إيراد الآيات: وبهذا يفهم القارئُ مقاصد القرآن.

قال ابْنُ جرير الطبري: "وفي حَثِّ الله عز وجلّ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات... ما يدلّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه. لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: (اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان

= فقد روى البخاري في الأذان: باب الجمع بين السورتين في ركعة: (٦١) رقم (٧٧٥) عن أبي وائل: جاء رجلٌ إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصَّل الليلة في ركعة، فقال: هذًّاً كهذِّ الشعر!، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهنَّ، فذكر عشرين سورة من المفصل، سورتين من آل حم في كل ركعة. ورواه أيضاً في فضائل القرآن: باب الترتيل في القراءة: (٤٣٧) رقم (٥٠٤٣).

وروى مثله مسلم في صلاة المسافرين: باب ترتيل القراءة واجتناب الهذ: (٨٠٦) رقم (٨٢٢).

(١) رواه البخاري: (٦١) رقم (٧٧٥).

والكلام)- إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به. فأما قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه"(١).

وينبغي للقارئ أن يبتعد عن موانع الفهم كالتكلف في القراءة والانشغال بها عن الفهم، واتباع الهوى فإنه من أعظم موانع تدبر القرآن الكريم.

٤ -تحسين الصوت عند القراءة:

وللصوت الحسن أثرٌ كبيرٌ في تدبر كلام الله تعالى، وقد حثَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على تزيين الصوت عند القرآن فقال صلى الله عليه وسلم: (زينوا القرآن بأصواتكم) (٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن) (٣).

قال ابن كثير: "قد فهم من هذا أن السلف ـ رضي الله عنهم ـ إنما

---

(١) جامع البيان: (١ / ٧٦ ـ ٧٧).

(٢) رواه أبو داود في سننه في الوتر: باب كيف يستحب الترتيل في القراءة: (١٣٣٢) رقم (١٤٦٨)، والنسائي في سننه في الافتتاح: باب تزيين القرآن بالصوت: (٢١٥٣) رقم (١٠١٦) و (١٠١٧)، وابن ماجة في سننه في إقامة الصلوات: باب في حسن الصوت بالقرآن: (٢٥٥٦) رقم (١٣٤٢) عن البراء بن عازب رضي الله عنه، وانظر: السلسة الصحيحة للألباني: (٢ / ٤٠١) رقم (٧٧١).

(٣) رواه البخاري في التوحيد: باب قول الله تعالى: (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير): (٦٢٨) رقم (٧٥٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فهموا من التغني بالقرآن: إنما هو تحسين الصوت به، وتحزينه، كما قاله الأئمة، رحمهم الله"[1].

وقال: "والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتحزينه والتخشع به"[2].

وقال النووي: "أجمع العلماء ـ رضي الله عنهم ـ من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم من علماء الأمصار أئمةِ المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورةٌ نهاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها، ودلائل هذا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ مستفيضةٌ عند الخاصة والعامة"[3].

والمطلوب من تحسين الصوت الوصول للخشوع والتأثر، قال السندي: "المطلوب من تحسين الصوت بالقرآن أن تنتج قراءته خشية الله فمن رأيتم فيه الخشية فقد حسن الصوت بالقرآن المطلوب شرعاً فيعد من أحسن الناس صوتاً"[4].

٥ – فهم لوازم النص ومقاصده:

وهذا من أعظم أسباب تدبر القرآن الكريم، فإن القرآن كثيراً ما يذكر في القصص مواطن العبرة، ويترك للفؤاد والعقل مطلق التأمل والتدبر في

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (١ / ٦٠) طبعة دار طيبة.

(٢) السابق: (١ / ٦٣) طبعة دار طيبة.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن: (١٠٩).

(٤) نقله عنه في مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٧ / ٥٨٧).

ما لم يذكر، وقد يختم الآية بعلة لم تعلق بشيء، ليتأمل العقل، كما قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر].

قال الشوكاني: "ولم يقل عن كذا ، بل أطلقه؛ لأن الإطلاق أبلغ في الذمّ؛ لأنه يذهب الوهم فيه كلّ مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم ، كما تقرّر في علم البيان"[1].

ويدخل في هذا السبب معرفة مقاصد سور القرآن وآياته، وهو باب عظيم لتدبر القرآن الكريم، وتطبيقاته في كتب التفسير كثيرة.

وهذا السبب مؤثر جداً في التدبر، خاصة في القصص القرآني، والأمثال القرآنية.

(١) فتح القدير: (١٩٧٠).

المبحث الثالث
ثمرات تدبر القرآن الكريم

عند تأصيل منهج تدبر القرآن الكريم؛ لابد من ذكر الثمرات التي يُرجع إليها لمعرفة المنهج الصحيح لتدبر القرآن الكريم، حيث قد وُجد خلط بين بعض السلوكيات المصاحبة لتلاوة القرآن الكريم، وبين تدبر القرآن الكريم، فظنَّ كلُّ من عَمِلَ عملاً متأثراً بالقرآن أنَّ ذلك نتيجة التدبر، وهو غير صحيح.

بل لابد من التمعن في هذه الثمرات، وقياس الإنسان نفسَه عليها حتى يعلم موافقته للتدبر الصحيح من عدمها. ومن تلك الأصول ما يأتي:

- **الثمرة الأولى: التدبر الصحيح يهدي إلى الإيمان ويزيده:**

وقد دلَّ على ذلك أدلة من كتاب الله تعالى منها:

أ - قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ ﴾ [التوبة].

ب - وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ﴾ [الأنفال].

فالآية الأولى صريحة في زيادة إيمان المؤمنين بسبب ما أنزل من القرآن الكريم، وإنما يكون ذلك عند تأمل القرآن وتدبره وفهم ما فيه، مما ينتج عنه الخوف والفزع والرجاء بما عند الله، والعمل بما يتضمن من أوامر ونواهٍ.

قال مجاهد والسدي وغيرهما: ﴿ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾: فرقت، أي: فزعت

وخافت[١].

وقال الربيع بن أنس: "﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾: زادتهم خشية"[٢].

وليس مجردُ السَّماع كافياً في حصول ذلك الإيمان، فإن المشركين قد سمعوا القرآن ولكن كان عملُهم الإعراضَ والكفرَ والتكذيبَ والاستهزاءَ والتوليَ وعدمَ العملِ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [التوبة]، وقال: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [محمد]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم].

فتزيدهم لذلك الآياتُ رِجْساً وكفراً، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة].

وأما المؤمنون فإنهم بخلاف ذلك كما قال ابن كثير: "وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٥٧٤).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: (٥ / ١٦٥٦) رقم (٨٧٧٩).

زواجره"[1].

وقال في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان] [2]: "أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين، بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم"[3].

وقال السعدي: "﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾: ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويُحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم،لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنىً كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه،أو يُحدث في قلوبهم رغبةً في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم،أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان"[4].

والمؤمن يقيس تدبره بهذا الأصل العظيم؛ فإن أورثه إيماناً بالله، وتصديقاً برسوله صلى الله عليه وسلم؛ فهو على جادة السلف الصالح ــ رحمهم الله ــ في تدبر القرآن، وإن كانت تلاوتُه مجردَ ألفاظٍ يرددها أو أصواتٍ يسمعها فإنه لم يصل بعد إلى المعنى الحقيقي لتدبر القرآن الكريم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٥٧٤).

(٢) تنبيه: كلام ابن كثير حول هذه الآية ليس في تفسير سورة الفرقان وإنما في تفسير سورة الزمر عند الآية رقم: (٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم: (١١٨٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن: (٣١٥).

- **الثمرة الثانية: التدبر يبعث على الخشية والخوف والرجاء والدمع:**

وقد دلَّ على ذلك آيات منها:

أ ـ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر].

ب ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة].

قال ابن كثير: "هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون ويُؤمِّلون من رحمته ولطفه"[1].

وقد وصف الله الذين أوتوا العلم بالخشوع والبكاء عند استماع القرآن، قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

- **مسألة: التدبر الصحيح يبعث على التأثر بلا تكلف:**

وهذا هو حال الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، والتابعين رحمهم الله،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (١١٨٣).

فقد كان تدبرهم للقرآن أعظمَ التدبرِ وأعلاه، مُورِّثاً العملَ والإيمانَ والتأثرَ بلا تكلف، وقد نبه العلماء إلى حال بعض الناس الذين فهموا التدبر على غير وجهه، فكان تدبرهم صراخاً وعويلاً وتكلفاً، ومن تلك الأقوال التي تحذر من ذلك:

- قال عروة بن الزبير: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عز وجل: تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قال فقلتُ لها: إن ناسًا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرَّ أحدُهم مغشيًا عليه، فقالتْ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[(١)].
- وقال عكرمة: سُئلتْ أسماءُ بنت أبي بكر: هل كان أحد من السَّلَف يُغشى عليه من الخوف؟ قالت: لا، ولكنهم كانوا يبكون[(٢)].
- وعن ابن عمر أنه: مر برجل من أهل العراق ساقطًا، فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط، قال ابن عمر: إنا لنخشى الله وما نسقط! [(٣)]. وقال ابن عمر: إن الشيطان ليدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: (١٠ / ٣٢٤٩) رقم (١٨٣٧٩)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور: (٧ / ١٩١) إضافة إليه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر. وانظر: زاد المسير: (١٢٢٩)، والمحرر الوجيز: (٤ / ٥٢٨).

(٢) زاد المسير: (١٢٢٨ – ١٢٢٩).

(٣) انظر: البحر المحيط: (٩ / ١٩٦)، والجامع لأحكام القرآن: (١٥ / ٢٤٩)، وتفسير البغوي: (٧ / ١١٦)، وزاد المسير: (١٢٢٨)، والمحرر الوجيز: (٤ / ٥٢٨).

وسلم[١].

- وقال عامر بن عبد الله بن الزبير: جئتُ أبي، فقال لي: أين كنتَ؟ فقلت: وجدتُ قوماً ما رأيت خيراً منهم قَطُّ، يذكُرون الله عز وجل فيُرعَد واحدهم حتى يُغْشَى عليه من خَشْية الله عزَّ وجلَّ، فقعدتُ معهم، فقال: لا تقعُد معهم بعدها أبداً. قال: فرآني كأني لم يأخذ ذلك فيَّ، فقال: رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن، ورأيتُ أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يُصيبُهم هذا من خَشْية الله تعالى، أفتَرَى أنهم أخشى لله من أبي بكر وعمر، قال: فرأيت ذلك كذلك[٢].

- وقال قتادة بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]: "هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان"[٣].

- وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذ قرئ عليهم القرآن؟ فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطًا رجليه ثم يقرأ عليه

---

(١) انظر: البحر المحيط: (٩/ ١٩٦)، والجامع لأحكام القرآن: (١٥/ ٢٤٩)، وتفسير البغوي: (٧/ ١١٦).

(٢) زاد المسير: (١٢٢٨).

(٣) رواه عبد الرزاق في تفسيره: (٣/ ١٣٠) رقم (٢٦٢٦)، وانظر: تفسير البغوي: (٧/ ١١٦)، وفهم القرآن: (٢٧٩)، وتفسير القرآن العظيم: (١١٨٣).

القرآن من أوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق[1].

- وكان جَوّابُ يُرْعَدُ عند الذِّكْر، فقال له إبراهيم النخعي: إن كنت تملكه، فما أُبالي أن لا أعتدَّ بك، وإن كنتَ لا تملكه، فقد خالفتَ من كان قبلك[2].

- وقال القرطبي: "الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوعَ الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقاً متأدباً متذللاً، وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك. وأما المذموم فتكلفه والتباكي ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليُرَوا بعين البر والإجلال وذلك خدع من الشيطان وتسويل من نفس الإنسان"[3].

- وقال أيضاً: "فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى

(١) انظر: البحر المحيط: (٩ / ١٩٦)، والجامع لأحكام القرآن: (١٥ / ٢٤٩)، وتفسير البغوي: (٧ / ١١٦)، والمحرر الوجيز: (٤ / ٥٢٨).

(٢) زاد المسير: (١٢٢٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١ / ٣٧٥).

ﭐلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ [المائدة]، فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم. ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم، فمن كان مستناً فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً، والجنون فنون"[١].

- وقال ابن كثير في بيان وجوه مخالفة المؤمنين للفجار عند سماع القرآن: " أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة، رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقِدح المُعَلّى في الدنيا والآخرة"[٢].

هذا هو المنهجُ المعروفُ عن مجمل السلف الصالح رحمهم الله في تدبر القرآن الكريم، وقد وُجِدَتْ استثناءاتٌ من بعضهم نبَّه عليها العلماء:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ إذَا كَانَ مَغْلُوبًا عَلَيْهِ لَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ حَالُ الثَّابِتِ أَكْمَلَ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَد عَنْ هَذَا، فَقَالَ: قُرِئَ الْقُرْآنُ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ

(١) السابق: (٧ / ٣٦٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (١١٨٣).

الْقَطَّانِ فَغُشِيَ عَلَيْهِ وَلَوْ قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَدْفَعَ هَـذَا عَـنْ نَفْسِـهِ لَدَفَعَـهُ يَحْيَـى بْـنُ سَعِيدٍ فَمَا رَأَيْت أَعْقَلَ مِنْهُ وَنَحْوَ هَذَا. وَقَدْ نُقِلَ عَنْ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ أَصَابَهُ ذَلِكَ وَعَلِيُّ بْنُ الفضيل بْنِ عِيَاضٍ قِصَّـتُهُ مَشْـهُورَةٌ. وَبِالْجُمْلَـةِ فَهَـذَا كَثِيرٌ مِمَّـنْ لَا يُسْتَرَابُ فِي صِدْقِهِ. لَكِنَّ الْأَحْوَالَ الَّتِي كَانَتْ فِي الصَّحَابَةِ هِـيَ الْمَـذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ وَهِيَ وَجَلُ الْقُلُوبِ وَدُمُوعُ الْعَيْنِ وَاقْشِعْرَارُ الْجُلُودِ...

وَقَدْ يَذُمُّ حَالَ هَؤُلَاءِ مَنْ فِيهِ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ وَالـرَّيْنِ عَلَيْهَـا وَالْجَفَـاءِ عَنْ الدِّينِ مَا هُوَ مَذْمُومٌ وَقَدْ فَعَلُوا وَمِنْهُمْ مَـنْ يَظُـنُّ أَنَّ حَـالَهُمْ هَـذَا أَكْمَـلُ الْأَحْوَالِ وَأَتَمُّهَا وَأَعْلَاهَا وَكِلَا طَرَفَيْ هَذِهِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ... وَلَكِنْ مَنْ لَمْ يَـزُلْ عَقْلُهُ مَعَ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنْ الْإِيمَانِ مَا حَصَلَ لَهُمْ أَوْ مِثْلُهُ أَوْ أَكْمَلُ مِنْهُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ. وَهَذِهِ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَهُوَ حَالُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ إلَى السَّمَاءِ وَأَرَاهُ اللهُ مَا أَرَاهُ وَأَصْبَحَ كَبَائِتٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَلَيْهِ... وَمَنْ خَافَ اللهَ خَوْفًا مُقْتَصِدًا يَدْعُوهُ إلَى فِعْلِ مَـا يُحِبُّهُ اللهُ وَتَـرْكِ مَـا يَكْرَهُهُ اللهُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ فَحَالُهُ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ مِنْ حَـالِ هَـؤُلَاءِ وَهُـوَ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ...

وَالصَّـوَابُ: لِلْمُسْـلِمِ أَنْ يَعْلَـمَ أَنَّ خَـيْرَ الْكَـلَامِ كَـلَامُ اللهِ وَخَـيْرَ الْهَـدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَيْرَ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ وَأَنَّ أَفْضَلَ الطُّرُقِ وَالسُّبُلِ إلَى اللهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَيُعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِمْ وَوُسْعِهِمْ"(١).

(١) مجموع الفتاوى: (١١ / ٨ ـ ١٤).

▪ **الثمرة الثالثة: التدبر يورث العمل:**

فإن تدبر القرآن لا يقفُ بالمؤمن عند مجرد السماع والتأثر، بل يتعدى ذلك إلى العمل والاستجابة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا أصلٌ عظيم من أصول التدبر، وإلا فقد ذمَّ الله اليهود الذين يزعمون أنهم آمنوا بالكتاب، والحال أنهم لا يعملون به، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة].

وقال الشيخ السعدي: " وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسله، قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [البقرة]" (١).

ولا شكَّ أن العمل بالقرآن الكريم نتيجة الإيمان به وتدبر معانيه.

وختاماً فهذه الثمرات وما ذكر في هذا الموضوع، محاولة لضبط وتأصيل هذا الموضوع المهم، أسأل الله تعالى أن تكون محاولة في الطريق الصحيح، والموضوع لا يزال بحاجة إلى مزيد بحث وتأمل، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم...

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

---

(١) القواعد الحسان: (١٣٦).

ثبت المراجع والمصادر

١. **إحياء علوم الدين،** لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بلا سنة طبع.

٢. **أخلاق حملة القرآن،** لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: الدكتور عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، مكتبة الدار، ط١، ١٤٠٨هـ.

٣. **أمثال ونماذج بشرية من القرآن الكريم،** لأحمد بن محمد طاحون، دار هجر، ط١، ١٤١١هـ.

٤. **البحر المحيط في التفسير،** لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جيل، دار الفكر، ط١٤٢٠هـ.

٥. التأصيل،

٦. **التبيان في آداب حملة القرآن،** للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد الحجار، دار ابن حزم، ط٣، ١٤١٤هـ.

٧. **تحرير معنى التدبر عند المفسرين،** فهد مبارك الوهبي، مخطوط.

٨. **تدبر القرآن الكريم وقفات ولفتات،** للدكتور عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، ط١، ١٤٣١هـ.

٩. **التعريفات،** للشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٠٨هـ.

١٠. **تفسير الإمام عبد الرزاق،** تحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ.

١١. **تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)،** لأبي محمد الحسين بن

مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط٤، ١٤١٧هـ.

١٢. **تفسير القرآن العظيم**، لابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الحلبي، ط٣، ١٤١٩هـ.

١٣. **تفسير القرآن العظيم**، للإمام عماد الدين إبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار السلام، ط١، ١٤٢١هـ.

١٤. **تفسير القرآن العظيم**، للإمام عماد الدين إبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي محمد السلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ.

١٥. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، للشيخ عبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.

١٦. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٧. **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، راجعه وضبطه وعلق عليه: الدكتور محمد إبراهيم الحفناوي وخرج أحاديثه: الدكتور محمود حامد عثمان، دار الحديث القاهرة، ط٢، ١٤١٦هـ.

١٨. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، للإمام السيوطي، صححه وخرج أحاديثه: الشيخ نجدت نجيب، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢١هـ.

١٩. **زاد المسير في علم التفسير**، للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ.

٢٠. السلسلة الصحيحة، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٥هـ.

٢١. **سنن ابن ماجه**، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط٣، ١٤٢١هـ.

٢٢. **سنن أبي داود**، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط٣، ١٤٢١هـ.

٢٣. **سنن الترمذي**، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط٣، ١٤٢١هـ.

٢٤. **سنن النسائي**، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط٣، ١٤٢١هـ.

٢٥. **سير أعلام النبلاء**، للإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط١١، ١٤٢٢هـ.
٢٦. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٣، ١٤٠٤هـ.
٢٧. **صحيح البخاري**،المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط٣، ١٤٢١هـ.
٢٨. **صحيح مسلم**، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط٣، ١٤٢١هـ.
٢٩. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للإمام الشوكاني، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢١هـ.
٣٠. **فهم القرآن**، للحارث المحاسبي، قدم له وحقق نصوصه: د. حسين القوتلي، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٢هـ.
٣١. **القاموس المحيط**، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط٨، ١٤٢٦هـ.
٣٢. **القواعد الحسان لتفسير القرآن**، للشيخ عبد الرحمن السعدي، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٠هـ.
٣٣. **كتاب العين**، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي

المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال،

٣٤. **مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية،** جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١٤١٦هـ.

٣٥. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،** للإمام ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٦. **مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح،** لأبي الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري، طبع إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية بنارس الهند، ط٣، ١٤٠١هـ.

٣٧. **مسند الإمام أحمد،** تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين، إشراف الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.

٣٨. **معجم مقاييس اللغة،** لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، اعتنى به: الدكتور محمد عوض مرعب والآنسة فاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٩. **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،** للواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، ط١، ١٤١٥هـ.